



محمد الشحي

التنازع المعرفي التبادلي بين المعتزلة والأشاعرة

لعل البَحْثَ المشغولين بمشكلات «الهوية»، لا سيما العربية، يقفون بإزاء البَحْثِ المهتمين بدراسة التراث العربي الإسلامي، والوقوف على مدى تأثره بالواقع الاجتماعي والسياسي، في محاولة لتقديم رؤية تفسيرية لسلوك النفس العربية الإسلامية، وتقديم نموذج تحليلي لإمكانات تلك النفس في مواجهة العالم الحديث الذي تخطى، كما يبدو لنا في سياساته الاجتماعية والقانونية، عقدة التراث، وأضحى متحرراً من القيود التي تضعها في رسغها مفاهيم ظهرت استجابة لواقع سياسي واجتماعي مختلف.

يخفى أن المعالجات المتباينة لتلك المفهومات هي التي تقود لا النصوص نفسها.

وأما دليها ببقاء علم الكلام الإسلامي حتى اليوم، فمادام هذا البقاء، وهل هو بقاء حيوي فاعل، بمعنى أن المعرفة المتولدة من علم الكلام متراكمة متطورة وفاعلة في الحقل المعرفي؟ أم أن كل ما يُنتج في هذا المجال هو مجرد اجترار لصراعات معرفية سابقة، ربما تُعاد صياغة بعض مفرداتها مراعاة للواقع المعرفي الحديث؛ لذلك نجد أننا نتفق مع ابن خلدون والغزالي بانعدام الجدوى، لكنه انعدام معرفة وليس انعدام الأمان العقيدي - إن جاز لنا التعبير -.

طرح الباحث في مقاله مقابلة بين المعتزلة والأشاعرة، على ما بينهما من بون شاسع في الرؤية لذات الإلهية، والتعاطي مع النصوص القرآنية تفسيراً وشرعاً. فيثبت أن الأشاعرة متكلمون كالمعتزلة تماماً، فهم يستخدمون مفردات المنطق والكلام لعقنة النقل، ولو كان على حساب العقل. وهذا ما لا شك فيه، بدليل هجوم الأصوليين على كليهما وعدهما وجهين لعملة واحدة: البدعة.

يلفت النظر ذلك التساؤل الذي طرحه رضوان السيد قائلًا: «ولست أدري لماذا يجب أن تكون للرأي السياسي دائماً صلة بالاعتقاد الديني؟»، مدللًا على ذلك بسيرة واصل بن عطاء، مؤسس المذهب الاعتزالي، التي تخلو من ذكر أي توجه سياسي له. إلا أننا نقف لتساؤل الأستاذ نفسه: ولماذا لا يكون الرأي السياسي هو من دائماً في الحقل الديني؟ خاصة أن هناك العديد من الأخبار التي وردت في كتب التاريخ الإسلامي مؤرخة ومُلَّة على صحة الزواج العربي فيما بين السياسة والدين؛ من أمثال قتل أحد أعلام المعارضة من قبل الأمويين ورمي رأسه لأتباعه قائلين: «قتلناه بأمر الله السابق»، وفي هذا تصريح لا يدع مجالاً للشك بتوظيف الديني لما هو سياسي.

ختامًا، يقرر الكاتب بأن كلا من المعتزلة والأشاعرة كلاميون، يتوسلون العقل والمنطق في إثبات رؤاهم الدينية، غير غافل عن حقيقة أن لهما غايات رؤية في تصورهم لله - عز وجل - وليست المحورية فيه للإنسان.

والشريعة، فالدين قائم على مبدأ الاتباع والتسليم المطلق لكل ما يرد في المدونة الإسلامية من قرآن كريم وسنة نبوية بالمقام الأول. ولهذا الاعتراض وجهة تدعمها عديد النصوص القرآنية والنبوية، وتؤكد المدونات التفسيرية للقرآن والحديث، ويلقى قبولا واسعاً عند كثيرين.

وأما الاعتراض الثاني فنستطيع أن نقول بأنه اعتراض حديث؛ على اعتبار أن القائلين به ممن يُعدون حديثين في سيرورة الفكر العربي الإسلامي، ونقصد بهم أولئك المتأخرين والمعاصرين من المستشرقين والعرب. وخالصة الاعتراض أن منشأ علم الكلام سياسي بحت، وأنه ذو طبيعة سياسية غالبة. والقائلون بهذا الاعتراض لا يعدون النظريات التي قدمها المعتزلة وغيرهم في مسائل تنزيه الذات الإلهية - لا يرون في ذلك سوى مسألة تمهيدية للمسألة المحورية - وإن تخفّت - التي يبشرون بها: الحرية الإنسانية، في مواجهة مباشرة لعقيدة الجبر التي تبنى خطابها الأمويون. ولهذا الاعتراض وجهة كذلك؛ على اعتبار أنه لا ينتزع المعرفة من البيئة الاجتماعية والسياسية التي ظهرت فيها.

ويرى الباحث أن تأثر مسائل القدر إثباتاً ونفيًا والكبائر وعلاقتها بالإيمان - كان تأثر هذه المسائل بالسياسة تأثرًا تابعًا فحسب، ولم يكن فرزًا مباشرًا للصراع السياسي الحاصل. وأن مسألتَي الإيمان والقدر قرآنيّتان سابقتان في وجودهما على الصراع الذي حدث لاحقًا، مستدلا على ذلك بدليل أن علم الكلام لم ينه في القرن الثاني الهجري عندما انفصلت قضاياها بوضوح عن المسائل السياسية، بل استمر حتى اليوم، على حد قوله.

إلا أننا نعقب على ذلك بقولنا: صحيح أن مسألتَي الإيمان والقدر قرآنيّتان، من حيث إنهما وردتا في النص القرآني وعالجهما في تمثلهما بين المؤمنين والكفار، لكن كلا الفريقين يسلمان بذلك، ويبقى الاختلاف في تفسير كل فريق منهما لتلك المفهومات التي وردت في النص القرآني، وهذا هو المفصل الذي يفصل بين المذاهب/المدارس الإسلامية، فمجرد الأسبقية الوجودية لتلك المفاهيم لا يعني أسبقية معالجتها (تفسيرها) عند المسلمين، ولا

يعود بنا الفكر رضوان السيد إلى بحث الموضوعات البحثية التقليدية في الفكر الكلاسيكي العربي الإسلامي من خلال تقديم قراءته المتسلسلة لأفكار الفرق الإسلامية القديمة. وفي مقالنا هذا، سنقدم قراءة لمقاله المعنون بـ«رؤى العدل والمسؤولية ورؤى العناية والرحمة عند المتكلمين المسلمين» المنشور في مجلة التفاهم.

يستهل رضوان السيد مقاله بوضع إشكالية مقاربتة ضمن سياق إنتاجه المعرفي المنشور في مجلة التفاهم على مدى عشر سنوات من الكتابة والنشر، مُبرزًا مجال مقارباته تلك، ورأسًا خطوطًا عريضة لها من حيث إنها تسلسلت ضمن «قراءة قضايا صفات الله - عز وجل - لدى المتكلمين المسلمين، والفضائل المتصلة بها بوصفها قيمًا تشكل المنظومة الأخلاقية في القرآن الكريم». ولعل الباعث الذي دفعه لذلك هو رؤيته أنها مداخل «تتفرع عنها اعتبارات سلوكية وسياسية وتنظيمية»، مقررًا بأنه قد سبق إلى البحث والمقاربة في هذا المجال من قبل عديدين، ذكراً منهم الشيخ محمد عبدالله دراز وإيزوتسو وعبدالرحمن بدوي.

ويعدد الكاتب ضمن المداخل التي يعدها أصولًا تتفرع عنها السلوكيات والسياسات والتنظيمات: المساواة، والرحمة والإحسان، والعدل، والمعروف، والتعارف، والخير العام. يجعلنا التسليم بهذه المفاهيم، بوصفها أصولًا، أمام فرضية يحق لنا أن نسأل الأستاذ عن القاعدة المعرفية التي أفرزت هذه المفاهيم، لكن الباحث هنا أغفل هذا الجانب في طرحه، فجعلنا نفترض أننا موعودون بتحليل شامل لتراث المتكلمين المسلمين لنصل إلى خلاصة تؤيد هذه الفرضية من عدمها، إلا أن الأستاذ تجاوز هذه النقطة في خضم تحليله لمحتوى التراث الكلامي ليغوص في تفاصيل أنسسته تلك الخطوة المنهجية أثناء كتابته للبحث/المقال.

ويورد كاتب المقال اعتراضين يعترضان على التفكير والبحث في المحتوى الكلامي الإسلامي من وجهتي نظر متباينتين. الاعتراض الأول من عند الأصوليين الإسلاميين أنفسهم؛ إذ إنهم يرون أن مجرد التفكير في هذا المجال تفكيرًا أخلاقيًا منافٍ لطبيعة الدين والعقيدة